

التماسك النصي في سورة الشُّورى من خلال علم المناسبة

Textual Coherence in Surah Ash-Shura Through the Science of Proportions

عبد الرحمن قريمس*

أ.د بوزيد مومني*

تاريخ النشر: 2025/06/20	تاريخ القبول: 2025/05/31	تاريخ الإرسال: 2024/11/26
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

إنَّ الحديث عن التماسك النصي في السُّورة القرآنية يجرنا إلى الحديث عن حضور مفاهيم لسانيات النص في التراث اللغوي العربي، فالمناسبات القرآنية في صميم موضوعات علم النص، وهي علم يُعنى بالكشف عن أشكال الترابط الشكلي والدلالي بين آيات القرآن الكريم وسُوره، ويرصد مختلف وجوه التناسب بين عناصر النص القرآني، والغاية تجلية الإعجاز القرآني، والوقوف على انسجام النص واتساقه وتماسكه. ويقترب مفهوم المناسبة من معيار الانسجام في الدراسات النصية الحديثة، فالذكر الحكيم تحكمه وحدة موضوعية كلية شاملة إذ لا يُمكن فهم إحدى جزئياته إلا في إطاره الكليّ الشامل.

والقصد في هذا المقال إبراز أهمية المناسبات القرآنية في تحقيق التماسك النصي في سورة الشُّورى من خلال تطبيق مُختلف الآليات النصية مُستعينًا بما ورد في كُتب علم التفسير وعلوم القرآن، خصوصًا أنَّ التطبيقات النصية تكشفُ بجلاء شمولية النص القرآني.

الكلمات المفتاحية: التماسك النصي، المناسبة القرآنية، الانسجام، لسانيات النص.

*جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل، مخبر اللغة وتحليل الخطاب،

abderrahmen.grimes@univ-jijel.dz

*جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل، m190318b@yahoo.fr

Abstract:

The discussion of textual coherence within a Qur'anic Surah leads us to explore concepts from text linguistics in the Arabic linguistic tradition. The Science of Proportions is central to studying the relationships between Verses and Surahs in the Qur'an, focusing on identifying the formal and semantic connections. This field examines various aspects of how the elements of the Qur'anic text correspond with one another, aiming to uncover the Qur'anic miracle and demonstrate the text's unity, consistency, and coherence. The concept of proportion in this context is closely tied to coherence in modern textual studies. The Qur'anic discourse is governed by an overarching thematic unity, where understanding any part of it requires considering its relationship to the whole.

The purpose of this article is to highlight the importance of the Science of Proportions in achieving textual cohesion and coherence in Surah Ash-Shura through the application of textual mechanisms. These mechanisms, derived from exegesis and Qur'anic sciences, demonstrate how textual analysis reveals the comprehensive nature of the Qur'anic text.

Key words: Textual Coherence, the Science of Proportions, Coherence, Text Linguistics.

*** **

المؤلف المرسل: عبد الرحمن قريمس، abderrahmen.grimes@univ-jijel.dz

مقدمة:

علمُ المناسبة هو علم يُعنى بالكشف عن الترابط اللفظي والمعنوي بين آيات القرآن الكريم وسوره، مما يبين أنّ القرآن الكريم وحدة نسقيّة متكاملة لا اجتزاء فيها. فهو بناء فكري ولغوي متكامل وشامل ومستقل بذاته، فالتماسك الشديد الذي يتسم به الذكر الحكيم الذي نزل على مدار نيف وعشرين سنة مؤشّر على منزلة النصّ القرآني وشموليته الذي ينأى عن النصوص الأخرى من حيث الحكم الإلهيّة والمقاصد الشرعيّة والأسرار الفنيّة.

والإشكالية التي سنقف عليها تتمثل في كشف جسور الالتقاء بين لسانيات النصّ باعتباره علماً غربياً وعلم المناسبات الذي ينتهي إلى علوم القرآن، فالبحث أساسه معرفةً الوشيحة التي تربط علم المناسبة بالاتساق النصي والانسجام العضوي.

أهداف الدراسة:

- الوقوف على وحدة النص القرآني (سورة الشورى نموذجاً) وتماسكه وانسجامه.
- رصد التناسب بين الآيات والسُور، واستقصاء أوجه التماسك بين سُور القرآن.
- الكشف عن أهمية التماسك الدلالي والترابط المعنوي في الخطاب القرآني بوصفه متناسج الآيات، متناسب السُور، متناسق الأجزاء.
- تجاوز النظرة التجزيئية التي تُقسم النصّ إلى أجزاء صغيرة لا يتعلّق بعضها ببعض.
- وللإجابة عن إشكالية البحث قُمتُ بدراسة تحليلية وصفية على سورة الشورى معتمداً ما جاء في علم المناسبة، وموظفاً آليات ومعايير لسانيات النصّ، وبخاصة معيار الانسجام الذي يرتبط ويتقاطع مع مفهوم المناسبة.

التماسك النصي في سورة الشورى من خلال المناسبة:

إنّ التناسب بين الآيات والسُور علم جليل اعتنى به القدماء وأوسعوه بحثاً سعياً منهم إلى تجلية الإعجاز القرآني، فالنصّ القرآني مُتعالٍ على النصوص الإنسانية، "فهو يتميز بملامح وسمات تعبيرية خاصّة تجعله يتفرّد متسامياً على جميع الأصناف الأدبية والأجناس التعبيرية المعروفة لدى قُراء العربية وكتّابها، ولا غرؤ ولا عجب في ذلك فهو تنزيل ربّ العالمين الذي أحاط بكلّ شيء علماً"¹.

وقد اجتهد علماء الدراسات القرآنية في إيجاد أدوات مساعدة ووسائل مُعيّنة على فهم النصّ القرآني وتدبر معانيه وتلقي خطابه المُعجز، فكانت المناسبة القرآنية من الوسائل التي اهتدى إليها بعض علمائنا قديماً وحديثاً في معرفة كنه الخطاب القرآني القائم على الارتباط والانسجام والتعاضد، فهو بناء فكريّ ولغوي متكامل وشامل ومستقلّ.

تطرحُ المناسبة القرآنيّة إشكالية المفهوم والمصطلح في الفكر اللغوي العربي، فاهتمامُ البلاغيين والتّقاد بأشكال الترابط والتّأخي بين الألفاظ والمعاني والتراكيب بيّن جليّ، ومظاهره لا تُعدّ ولا تُحصى في كتب البلاغيين، ومُدونات النقد، وكتب التفسير والإعجاز القرآني، وضبط المصطلح يحتاج استيعابا لما جاء به المتقدّمون وإحاطةً بما قاله المتأخرون، وهذا في الموضوعات العامّة، أمّا في علوم القرآن فالأمر أدقّ وأشقّ لخصوصيّة الدّرس القرآني.

1. تعريف المناسبة القرآنيّة:

والمناسبة هي وجوه الاتّصال والارتباط بين آياتِ السّورة القرآنية الواحدة، ووجوه التعالق بين السّور طبقا لترتيب السّور في المصحف الذي وُضع أساسا توقيفا، وهذا ما أجمع عليه جمهور العلماء قديماً وحديثاً. والمناسبة في علوم البلاغة هي الارتباط بين الألفاظ من حيث البنية والدلالة .

وبتعبير آخر هي وضع الكلام موضعه الذي يليق به حتّى يتمّ له الحُسْن والبلاغة، فالتناسبُ في جُلّه يدور على ارتباط معاني الكلام وترتيبها وانسجامها وعدم تنافرها.

وقد ميّز الإمامُ البِقاعيّ بين التناسب والنّظم، حيث جعل ما في الدّرنةظماً، وما في الآيات والسّور تناسُباً، وبالتالي كأنّ عنوان كتابه أشار إلى مُصطلحين: النظم التركيبي والنظم الترتيبي، والثاني هو الأهم والأعظم، إذ الأول كما يقول أسهل تناولا وأقرب ذوقاً²، فالنظم التركيبي يقف عند حدود الجملة ومكوناتها، أمّا النظم الترتيبي فهو التناسب والتّأخي الذي يكون بين مختلف العناصر داخل النسيج اللغوي.

والمناسبة في مُدونات علوم التفسير والدراسات القرآنية يُعنى بها البَحْثُ في علل التّرتيب وأسرار التّأليف والنّظم بين عناصر الآيات والسّور داخل نسيج النصّ القرآني، وقد عزّفها الإمام برهان الدّين البِقاعي بقوله: "المناسبة علم تعرف منه علل التّرتيب، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبتة من حيث التّرتيب، وثمرته الاطّلاع على الرّتبة الّتي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتّعلق الذي هو كلحمة النّسب"³.

وعرّفها الإمام أبو بكر بن العربي في كتابه سراج المريدين بقوله: "المناسبة ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم"⁴.

ومن التعريفات الحديثة نذكر تعريف الدكتور مصطفى مسلم: "المناسبة هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه، وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها، وفي الآيات تعني: وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها"⁵.

وذكر مناع القطّان أنّ المناسبة هي بيان "وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة"⁶.

وجاء في أبحاث نصر حامد أبي زيد أنّ "علم المناسبة بين الآيات والسور يتجاوز الترتيب التاريخي لأجزاء النصّ ليبحث في أوجه الترابط بين الآيات والسور في الترتيب الحالي للنصّ، وهو ما يطلق عليه «ترتيب التلاوة» في مقابل «ترتيب النزول»"⁷.

ونجمل ما جاء في المناسبة القرآنية في الجدول الآتي:

الجدول 1:

المناسبة لغةً	المقاربة والمشكلة.
المناسبة في القرآن	وجه ارتباط آيات القرآن وسوره بعضها مع بعض.
علم المناسبات	علم تعرف به علل ترتيب أجزاء القرآن الكريم.

المصدر: من إعداد الباحث اعتماداً على أدبيات الموضوع.

إنّ المناسبة في كتاب الله هي وجه الارتباط بين سور القرآن وآياته وكلماته، وغاية هذا بيان انسجام الخطاب القرآني وإبراز وحدة النصّ بوصفه بناءً محكمًا مُتلائمًا الأجزاء، وكشف الصّلات بين آيات القرآن الكريم، وسوره وموضوعاته، بهدف إبراز تناسقها وتلاحمها، لتجلية الإعجاز القرآني في نظمه وبيانه ووحدة موضوعاته ومقاصده.

2. التماسك النصي والمناسبة، ائتلاف وانسجام:

إنَّ التَّماسكَ النَّصِّيَّ علمٌ قديمٌ في أصوله، جديدٌ في أسلوبه، طرق القدامى موضوعاته، وبحثوا في مفرداته، واجتهدوا في التقعيد لأصوله. أمَّا حَدِيثًا فقد أفاضَ الباحثون في الحديث عن ماهيته ومظاهره وأصوله مُستفيدين من كتابات الغربيين مُعبرين عن ذلك بمُصطلحات كثيرة ومختلفة، كالحبك والسبك، والنَّظم، والالتحام، والتجاور، والرصف، والارتباط، والقائمة طبعاً طويلة غير أنَّنا ملزمون بتسليط الضَّوء على المصطلحات الَّتِي لها علاقة مباشرة بموضوع بحثنا، وتتمثل في الاتساق والانسجام والمناسبة، لكنَّها ليست متطابقة، وإنَّما بينها فروق تجعل كلاً منها يتسم ببنية خاصة، ويقوم بوظيفة معيَّنة في وسط معيَّن. ومن المعلوم أنَّ "هناك فرقاً بين نشأة العلم وظهوره، وبين تسمية العلم ووضع قواعده وأصوله في نظام معيَّن، فإنَّ غالب العلوم تظهر أولاً من دون اسم خاص" ⁸، كما هو حال مع المناسبات القرآنيَّة ولسانيات النَّص.

والتماسك النصي يتعلَّق أساساً بمعياريْن أساسيَّين، أحدهما يختص بالجوانب الشَّكليَّة في النَّص، والآخر يختص بالجوانب الدلاليَّة، وكلاهما مكملٌ للآخر، وهما الاتساق والانسجام، وهما أقرب إلى مصطلحي السبك والحبك في تراثنا العربي القديم، وقد نال التماسك النصي حظه من الدرس والتحليل والتطبيق قديماً وحديثاً كونه من أهم مرتكزات نظريات لسانيات النَّص، لما له من أهميَّة في التحليل النَّصي، وتكتسي أهميته كونه المسؤول عن تحقيق نصيَّة (Texture) النَّص الَّتِي لا تتم إلا به.

وقد اهتم الباحثون العربُ بمصطلح التماسك النصي في الدراسات النصية الحديثة، وبحثوا عنه في التراث العربي حتَّى وجدوا له عدَّة مدلولات عند القدامى كالانسجام والاتساق، والترابط وحسن السبك والتلاحم والالتئام والائتلاف والتلاؤم. حيث اعتنى علماء الدراسات القرآنية بالتماسك النَّصي ومظاهره، ونجد ذلك في مباحث التناسب وعلم المناسبة، إذ سعت المؤلفات إلى ضبط المقومات النصية التي تضبط النَّص القرآني من خلال تحديد العناصر الشكلية والآليات الدلالية التي تسهم في بناء النَّص. فالتداخل حاصل وموجود بين المقولات النظرية لعلم لسانيات النَّص وأقوال البلاغيين والمفسرين في باب المناسبات القرآنيَّة.

إنَّ ما أورده علماء الدراسات القرآنية والمفسِّرون في علم المناسبة من صميم لسانيات النَّص، حيث انصبت أغلب دراساتهم على إعجاز النَّص القرآني وبلاغته الخطابيَّة، وقد ذكر أسلافنا بعض أسس التَّماسك النصي الَّتِي أقام عليها العلماء المحدثون نظرية تماسك النَّص، وإن لم يؤسسوا نظرية عربية مستقلة في هذا المجال. فلسانيات النَّص هي الوريث الشرعي لعلم المناسبات في القرآن الكريم.

الجدول 2:

التماسك النَّصي	المناسبة القرآنية
الاتساق	التناسب النظمي
الانسجام	التناسب الترتيبي
القصدية	مقاصد السُّور القرآنيَّة
السياق	أسباب النزول
التناس	مناسبة السور للسورة

المصدر: من إعداد الباحث اعتماداً على أدبيات الموضوع.

3. الانسجام النَّصي في سورة الشُّورى من خلال علم المناسبة:

تُعتبر سورة الشُّورى من السور القرآنيَّة المكيَّة، وهي من قسم المثاني، وهي السُّورة الثَّانية والأربعون بحسب ترتيب المصحف الشريف، وهي السُّورة الثَّانية والستون نزولاً، فقد نزلت بعد سُورة الكهف وقبل سُورة إبراهيم، وتصنف في قسم الخواميم (أسرة آل حم)، وهي السُّور الَّتِي تبدأ بقوله تعالى: ﴿حَمَّ﴾، وعددها سبع، وهي سورة غافر، وسورة فُصِّلَتْ، وسورة الشُّورى، وسورة الزُّخرف، وسورة الدُّخان، وسُورة الجاثية، وسورة الأحقاف. وعدد آياتها ثلاث وخمسون آيةً.

وهي السورة الوحيدة في القرآن الَّتِي كان الاستهلال فيها بقوله تعالى: ﴿حَمَّ﴾ عَسَق ٢، وهي السُّورة الوحيدة الَّتِي وَرَدَ فيها اسم الله الولي، وقد ورد مرتين: ﴿قَالَ لَهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الشورى: 09]، ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ

الْحَمِيدُ ٢٨﴾ [سورة الشورى: 28]. والآية الحادية عشرة في هذه السُورة تعتبر أصلاً في تقرير العقيدة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١﴾ [سورة الشورى: 11]

1.3 مناسبة الاسم للسورة:

إنَّ المتأمل في أسماء سور القرآن الكريم يجد أنها توقيفية، والاجتهاد متروك والاعتباط معدوم، والوقوف حيث وقف المتقدمون واجب، وأجمع العلماء والباحثون على وجود مناسبة ظاهرة جلية بين اسم السُورة وموضوعها ومقصودها، ووجه تسميتها وقوع لفظ الشورى في الآية الثامنة والثلاثين من السورة ﴿وَالَّذِينَ آسَاجَبُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣٨﴾ [سورة الشورى: 38]. كما نجد في بعض الكتب اسم شورى مجردة من الألف واللام، ودليل أصحابه صورة اللفظ الواردة في السورة القرآنية.

ومن الأسماء أيضاً سورة عسق، ووجه التسمية ورودها في الآية الثانية ﴿عَسَقَ ٢﴾، وأسماء السُور في المصحف الشريف كالعنوان ولها علاقة بمقصود السُورة العام، وهي قاعدة أصيلة دأب الإمام برهان الدين البقاعي على العمل بها، وهي أن "اسم كل سُورة مترجم عن مقصودها، لأنَّ اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مُسمَّاه (يريد عنوانه) الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه"⁹.

والأسماء الأصل فيها أنها توقيفية، وهذا الأمر ليس على إطلاقه، فبعض السُور لها أسماء اجتهادية، ونجدها تدور بين طلبة العلم والباحثين والمنشغلين بالدراسات القرآنية.

2.3 مقاصد سورة الشورى:

إنَّ فهم معاني النص القرآني أساسه فهم المقاصد، فمعاني السُورة القرآنية تدور حول هذا المقصد العام، لذا وجب إدراكه وفهمه، فالمعاني تتوالد وتتكاثر من هذا المركز الذي يسهر على التنظيم والتنسيق، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنَّ علم المناسبات يقود إلى معرفة مقاصد القرآن الكريم، ومعرفة مقصد السُورة يعين على

معرفة المناسبة بين آياتها، من خلال النَّظر إلى المقصد العام للسُّورة، فالعلاقة بينهما تكاملية.

فمقصود سورة الشُّورى هو الاجتماعُ على هذا الدِّين القائم على الإيمان بأركانه، وروحه الألفة والتَّشاور وتقارب القلوب الدَّاعي إلى التواضع وعدم التَّكبر، والاجتماعُ والوحدة وعدم التفرُّق ولا سيَّما الاجتماع على أمر هذا الدِّين العَظيم.

يقول البقاعيُّ إمامُ المناسبات القرآنيَّة في مقدمة تفسيره لسورة الشُّورى أنَّ "مقصودها الاجتماعُ على الدِّين الَّذي أسَّسه الإيمان، وأمُّ دعائمه الصَّلَاة، وروح أمره الألفة بالمشاورة المقتضيَّة لكون أهل الدِّين كلَّهم في سواء كما أنَّهم في العبوديَّة لشارعه سواء"¹⁰.

فالسورة مقصودها الأعظم بيان حقيقة الرسالة الَّتِي أنزلها الله على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّها امتداد للوحي الَّذي سبقَ إلى الأنبياء. ومحورها الرِّئيس التأكيد على أهمية الاجتماع على هذا الدين، ويقتضي هذا التَّمسكُ بجماعة المسلمين ولزومها، ومشاورة المؤمنين فيما فيه صلاح وخير، فَمَنْ شاور الرِّجالَ فكَّر بعقولهم، وما نَدَم من استشار. والرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم يُوحى إليه ويستشير فيما لا نصَّ فيه، وهذا عين العقل والبصيرة، وفي هذا اجتماع على الخير.

فمن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورة:

- بيان الأدلَّة على وَحْدانيَّة الله تعالى وقُدْرته.
- إثباتُ كون القرآن وحيًا من عند الله سبحانه إلى نبيه محمَّد.
- بيانُ كمال تَشريع الله، ووُجوبُ مُتَابَعته، والتَّحذيرُ مِنْ مُخَالَفتِه.

وإذا تأملنا سُور آل حم السبع وجدنا أنَّها تتحدث عن محور مشترك وهدف رئيس ومقصد أساس يتمثل في إثبات الوحي، وموقف الكافرين من القرآن الكريم.

يرى وهبة الزحيلي أنَّ "موضوع هذه السُّورة كسائر السُّور المكيَّة مختص بالعقيدة القائمة على الإيمان بوحْدانيَّة الله، وصحة الرِّسالة النّبويَّة، والتصديق بالبعث والجزاء، ومحورها الأساسي الكلام عن ظاهرة الوحي"¹¹.

3.3 الوحدة الموضوعية في سورة الشورى:

من المفاهيم التي نجدها في مدونات النقد العربي، وكتب علوم القرآن، ومؤلفات لسانيات النص مفهوم وحدة الموضوع الذي يُعنى به حديث النص عن موضوع واحد، وأقوال الباحثين في اللسانيات تتألف مع آراء النقاد، فالسورة في القرآن الكريم تقوم على مفهوم العمود والمحور والمقصود، فكلها مفاهيم تتحدث عن فكرة المركز الذي تدور حوله الأجزاء التابعة له، والمكونة لبنية النص وشكله الخطابي. لذا فإنك لا تحس بنبوة أو ثغرة وأنت تنتقل من معنى إلى آخر، ومن الآية إلى آخرها، فالنص كحلقة مفرغة يتصل آخرها بأولها اتصالاً محبوكاً محكماً وثيقاً.

وفي سورة الشورى موضوع واحد يتمثل في بيان توحيد الله، وتقرير نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ووحدة الشريعة وأتباعها، كما تحدثت عن القيامة وأهوالها، وبيّنت ثواب العاملين في الدنيا والآخرة، وأنذرت بذلّ الظالمين وسوء عاقبتهم، فقد وعد الله التائبين بالقبول، وأوضحت السورة الحكمة في تقدير الأرزاق وقسمتها، وأخبرت عن عاقبة الذنوب، وأثنت على العافين عن الناس، وفيها منة على الخلق بما مُنحوا من الأولاد، وبيان كيفية نزول الوحي على الأنبياء، وامتنان الرحمن على الصادق الأمين بإعطاء الإيمان، وإنزال الفرقان، وبيان أن مرجع الأمور إلى الله الواحد الديان.

ولهذا فالموضوع الرئيس والمحور الأساس والركن الأبين في السورة هو "أن من نعم الله تعالى على البشرية جمعاء أن أنزل إليهم وحيه وكلامه وهداهم به، وهذه نعمة قلما ينتبه لها الناس بأن الله عز وجل يكلم من فوق العرش بكلامه الحكيم عباده ويُرشدهم ويدلهم على ما ينفعهم، وينهاهم عما يضرهم في الدنيا والآخرة"¹².

4.3 وجه التناسب والارتباط بين آيات السورة:

إن المتأمل في سورة الشورى يرى فيها السرد البديع للموضوعات داخل بنية النص الكبرى، فالسورة في حقيقتها تتحدث عن الوحي الرباني من حيث نزوله ومقاصده، فهو يدل على عظمة الخالق سبحانه، فالسورة زاخرة بالمعاني الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته، فالقرآن غايته تحقيق التوحيد ودفع الوثنية والشرك، وإنذار الناس بحقيقة يوم القيامة. ومن تمام التوحيد الإيمان بصدق نبوة محمد صلى الله

عليه وسلّم فيما يبلغه عن ربّه، كما تحدثت السّورة عن جزاء المؤمنين، وعاقبة المكذّبين يوم يقوم النّاس للقاء ربّهم.

وهذا يدلّ على وجود تناسب بين موضوعاتها، فالألفاظ والمعاني والتراكيب والفواصل تجري في فلك واحد. فالجزء قيمته تبرز في انتظامه في ذلك النّسيج المترابط المتسجم. "فالأيات المتجاورة متناسبة أوثق التناسب، بل متعاقبة، بل لو توقفت عن القراءة عند إحداها لاشتقت التي تليها إلى آخرها لتقرأ معها"¹³، وهذا ما نجده في سورة الشّورى، فنصّها في حقيقته مترابط الآيات، مُتصل الأجزاء، أخذ بعضه بأعناق بعض.

والمناسبات الداخلية بين آيات السّورة الواحدة وانتظامها داخل بنية كبرى يكشف عن قدر الأمور وأهميتها، فالنّظام يكشف عن أسرار الأشياء والحكمة من تشريعها، ويدلّ على حضور عناصر التماسك النصي الشكلية والدلالية.

5.3 مناسبة مفتتح سورة الشّورى لخواتيمها:

يوجد تناسب بين المفتتح والخواتيم في سورة الشّورى حيث جاء ذكر الوحي القرآني في الموضعين معاً، ولهذا كان المقصد الأساس للسّورة هو "عظمة الشريعة والوحي الإلهي المنزل على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم"¹⁴، وفي هذا التكرار دليل على عظمة الموحى سبحانه، فهو الملك الخالق، فورد في أولها قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الشورى: 03]، وورد في آخرها: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ أَمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى: 52]. فخاتمة السّورة متصلة بمطلع السّورة، وفي هذا إشارة إلى أنّ الله سبحانه يوحى إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما يوحى إلى الأنبياء من قبله. وأنّ حكمة التنزيل قد اقتضت ربط أول السورة بخاتمتها. فتعاقب أولها وآخرها في الدلالة على عظمة الوحي القرآني. "وهذه الروابط اللفظية مؤشرات دقيقة وقاطعة بأنّ هذه السّورة من تلك، وأنّ بين السّورتين نسباً يجمعهما، وسراً يوحدهما"¹⁵.

ومن وجوه التناسب اللطيفة بين أول السّورة وآخرها ما ذكره عدنان عبد القادر "في بيان علوه وحكمته، ورد في أولها ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة الشورى: 04]،

﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الشورى:03]. والذي كُرِّرَ في آخرها ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الشورى:51]¹⁶.

ومن المناسبات بين الآيات الأولى والخواتيم في سورة الشورى أنه سبحانه "قال في أوائل السُّورة: ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي﴾ [سورة الشورى:08]، وقال في أواخرها: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْراً يُهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة الشورى:52]. فالذي يهديه سبحانه يدخله في رحمته"¹⁷.

ومن المناسبات الجليلة تكرار السماء والأرض في الأول والآخر ﴿لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿تَكَادُ السَّمُوتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقَيْهِ﴾، ﴿صِرْطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. فهي دلائل على عظمة الخالق سبحانه، مما يدعو إلى عبادته وتوحيده جلّ وعلا، فهو المستحق للعبادة دون سواه. وعظمة المَوْجِي مناسبة لعظمة الوحي. وهذا كله يدخل في باب المناسبات القرآنية الخادمة لبناء النصّ وانسجامه.

6.3 مناسبة الفاصلة القرآنية للآيات التي ختمت بها:

تُعَدُّ الفاصلة القرآنية مظهرًا من مظاهر الإعجاز، وتُعرَّف على أنها كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وقرينة السجع، وسميت الفاصلة بهذا الاسم تشريفًا وتنزيهاً وتمييزًا.

وتُسَمُّ الفاصلة القرآنية في بناء التماسك النصي، فهي مكوّن من مكونات الآية القرآنية، ولها وظيفة إيقاعية جمالية وأخرى بلاغية نصية، وفي سورة الشورى نجد تمايزًا بين الفواصل القرآنية، وهذه المغايرة أدعى للانتباه والتأمل في معاني السورة، وهنا نقف على الفاصلة في الآية الثالثة ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فلما ذكر المَوْجِي سبحانه أنه أنزل القرآن على نبيّه المصطفى محمّدٍ صلى الله عليه وسلّم كما أوحى إلى الرُّسل من قبله ناسب أن يكون قوله ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هو فاصلة الآية الكريمة، فالله ذو الشَّانِ المقتدر العزيز في تدبيره ومراده اصطفى محمّدًا لرسالته، فهو المتصرّف بما لا يصدّه أحد، وأثارُ حكمته بارزة في خلقه، فالقرآن تنزيل من اتصف بالالوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة.

يقول البقاعي: "ولمّا كان نفوذ الأمر دائراً على العزّة والحكمة، قال: ﴿الْعَزِيزُ﴾، أيّ الذي يغلب كلّ شيء، ولا يغلبه شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع ما يصنعه في اتّقن محاله، فلأجل ذلك لا يقدر على نقض ما أبرمه، ولا نقص ما أحكمه"¹⁸.

فالشُّورة الجميلة تشبّك وحداتها في علاقات صوتية وتركيبية وفنية فيما بينها، فالجزء يكتسب جماله من علاقته بما قبله وما بعده، وسورة الشُّورى في مجموعها تؤلّف تلك الوحدة التي هي نتاج تلك العلاقات.

7.3 وجوه الارتباط والتناسب بين سور آل حم:

إنّ التجاور بين سور القرآن الكريم يقتضي التكامل في الموضوعات، فهذا من خصائص النّص القرآني المعجز، فالتّالي له مقاصد وغايات، وفيه حكم وأسرار، ومن بديع الترتيبات ولطيف المناسبات أنّ سور آل حم السّبع (غافر، وفُصّل، والشُّورى، والزخرف، والدّخان والجاثية، والأحقاف) نزلت متتالية، وجاءت متتالية في ترتيب المُصحف، وكلّها سور مكّيّة، وكلّها افتتحت بقيمة القرآن، وقد ذكرت جميعها موسى عليه السّلام ودوره في دَعوة قومه من بني إسرائيل إلى الله، وكلّها ركّزت على الاتحاد وحذرت من حُطورة الفُرقة، وفيها حديث عن انتقال الرّسالة من بني إسرائيل إلى أمة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وسميت هكذا لأنّ مطلعها (حم).

وتوجد موضوعات مشتركة بين هذه السُّور تتمثل في بيان نزول القرآن وذكر صفاته، وإبراز النعم الإلهيّة كالخلق والإيجاد والهداية، وذكر قصص الأنبياء والأُمم السّابقة، وتوجيه الخطاب إلى الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم وبيان دعوته، وذكر صفات المؤمنين وصفات الكافرين، وذكر الحساب ومشاهد يوم القيامة، والدّعوة إلى التحلي بالسّماحة والإحسان.

والمؤكد أنّها "لا تخرج في محورها العام عن الأغراض التي عالجهها القرآن المكيّ بشكل عام، ويتجلّى فيها بيان بُوة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وبيان امتنان الله تعالى عليه، وحفظه له، ورعايته له في سابق أمره ولحقه"¹⁹.

وتَقَرَّ أبحاث علم المناسبة أنَّ التجاور بين السور وترتيبها له لطائف جليلة، لعلَّ أبرزها تعلُّق السور معنوياً وتآخها دلاليًا، "فالقاعدة التي استقرَّ بها القرآن أنَّ كلَّ سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناج لإيجازه، وقد استقرَّ ذلك في غالب سور القرآن، طويلها وقصيرها"²⁰.

8.3 مناسبة مطلع سورة الشورى لمطالع آل حم:

توجد مناسبة جليّة بين مطلع سورة الشورى وبقية السور الست من عائلة الحواميم، فالبدء فيها كان بالأحرف المقطعة ﴿حَمَّ﴾، وقد قال بعض العلماء أنّها سر الله في قرآنه، وهي وجه من وجوه الإعجاز، فقد بهرت الفصحاء وأذهلت البلغاء، وفيها حكمة اقتضاها علم ربنا في كتابه. وقد قيل الكثير عن الأحرف المقطعة في القرآن الكريم، ولعل من أبلغ ما قيل أن الله تعالى يتحدّى بهذه الحروف العرب أهل اللغة والشعر بأن هذه هي الحروف التي تعرفونها، وتنظمون الشعر البليغ منها، وقد أنزل الله بها القرآن المعجز الذي عجزتم عن الإتيان بعشر سور أو سورة أو حتى آية واحدة منه.

وجعل بعض علماء الدراسات القرآنية اسم سور القرآن الكريم لذوات حم، فكلمها تحدّثت عن قيمة القرآن وعظيم فضله، وضرورة اتخاذه سرعةً ومنهاجاً. وهذا من بديع المناسبات القرآنية ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة غافر]، ﴿تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كِتَابٌ فَصَّلْتَ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة فصلت]، ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الشورى]، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الزخرف]، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكََةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [سورة الدخان]، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [سورة الجاثية]، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [سورة الأحقاف].

وتذكُر السور كلّها القرآن ومصدر تنزيله، وبَيّنت بعض صفات الوحي التي استمدّها من صفات الله، وهذه الصفات عندما تُقرن بالزّول القرآني تمنّحه صفة القدسيّة والتعظيم، والتناسب اللفظي والتقارب بين افتتاحيّات آل حم يدل على وحدة موضوعيّة تحكم هذه السور مُجتمعاً، فالاقتران والتّجاور في النصّ القرآني يقتضي

التشابه، وهذا من مباحث لسانيات النص التي تبحث في العلاقات التركيبية ومعايير النصية السبعة المحققة لصفة النصية التي تجعل من النص نصاً.

9.3 مناسبة خواتيم سورة فصلت لمفتتح سورة الشورى:

من المناسبات التي نقف عندها مناسبة خواتيم سورة فصلت لمفتتح سورة الشورى حيث جاء في خواتيم سورة فصلت الحديث عن الوحي في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۝٥٢﴾ [سورة فصلت:52]، وتحدثت بدايات سورة الشورى عن الوحي القرآني في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾ [سورة الشورى:03]، "فأثبت في افتتاح هذه السورة أن الله أوحى إلى نبيه كما أوحى إلى الأنبياء من قبله، فهو ردّ لكفر المشركين بالقرآن، وإثبات أنهم في ضلال بعيد"²¹. وهذا من وجوه التناسب الجلية المتناغمة مع فكرة وحدة الموضوع بين ذوات حم.

جاء في البحر المحيط: "مناسبة أول السورة لآخر ما قبلها: أنه قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۝٥٢﴾ [سورة فصلت:52]، وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال لما كفروا به، قال هنا: ﴿كَذَلِكَ ۝٣﴾ [سورة الشورى:03]، أي مثل الإيحاء السابق في القرآن الذي كفر به هؤلاء ﴿يُوحِي إِلَيْكَ ۝٣﴾ أي: إن وحيه إليك متصل غير منقطع، يتعهدك وقتاً بعد وقت"²².

ومن وجوه التناسب قوله تعالى في خواتيم سورة فصلت: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۝٥٤﴾ [سورة فصلت:54]، وهذا المعنى الشنيع يتنافى مع الأدب مع الله، لذا أردفه سبحانه بقوله في مقدمة سورة الشورى: ﴿تَكَادُ السَّمُوتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقَيْنَّ ۝٥﴾ [سورة الشورى:05]. فقبح المعنى الأول استدعى حضور معنى التنزيه الدافع لمعنى الشك والريبة. فانفطار السماوات "من عظيم شناعة الكفر بالذي خلق الأرض في يومين وجعلهم له أندادا كما قال في السورة المناظرة لهذه سورة مريم: ﴿تَكَادُ السَّمُوتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [سورة مريم:90]، وهذا كناية عن التخويف بالعذاب"²³.

وهذا يدلُّ على وجود مناسبة بين سُور القرآن الكريم، وانسجام الخطاب القرآني يأتي من هذا التشابه في المعاني والتكامل في الموضوعات والتماسك بين الآيات والسُور.

10.3 مناسبة مختتم سورة الشورى لمفتتح سورة الزخرف:

من وجوه التناسب اللطيفة بين خواتيم سورة الشورى ومفتتح سورة الزخرف حديث الموضعين معاً عن القرآن، وهذا من المناسبات المتكررة بين سورة آل حم باعتبارها سور القرآن الكريم من حيث مصدره وتنزيله وأحكامه، ومن المناسبات أيضاً "وصف القرآن في أول الزخرف أنه علي حكيم فقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌۭۥ﴾ [سورة الزخرف:04]، ووصف الله سبحانه نفسه في خواتيم الشورى بأنه علي حكيم فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيٍ جَبَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌۭۥ﴾ [سورة الشورى:51]. فالقرآن علي حكيم، والذي أوحاه علي حكيم، وهل يوحى إليّ الحكيم إلا إليّ الحكيم؟!²⁴

ومن المناسبات بين خواتيم سورة الشورى وبدايات سورة الزخرف موضوع خلق السماوات والأرض وما فيهما، وهذا مناسب للقرآن المكي الذي يتحدث عن دلائل قدرة الله سبحانه.

يقول الإمام فخر الدين الرازي إنّ "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"²⁵، ويؤكد البقاعي أنّ "المقصود بالترتيب معان جليّة الوصف، بديعة الرصف، عالية الأمر، عظيمة القدر"²⁶، وقال الفراهي: "ولمّا كان أكثر الحكم ومعالي الأمور مخبوءة تحت دلالات النظم، فمن ترك النظر فيه ترك من معنى القرآن معظمه"²⁷.

خاتمة:

وفي الختام نخلص إلى ما يأتي:

■ إنّ علم المناسبات علم دقيق المسالك خفيف المدارك، وقد قلّ المنشغلون به لدقته، ويحتاج إدراك المناسبات القرآنية إلى عقيدة وفهم وذوق وبصيرة حتّى

نكشف عن الأسرار والملح والنكات التي تخفيها الترتيبات بين آيات القرآن الكريم وسوره.

- تؤكد هذه الدراسة ما ذهب إليه الباحثون من أنّ الدرس اللغوي العربي القديم سمته حضور المفهوم وغياب المصطلح، فنظرية التناسب في الدراسات القرآنية تتقاطع مع لسانيات النص، فكلاهما يبحث في أشكال الارتباط النصي والتلاحم العضوي، وهذا يعني أنّ التراث العربي زاخر بالعلوم والنظريات التي نأخذها عن غيرنا تحت مُسَمّى الاقتراض والنقل والتأثر بالآخر.
- تُسهم المناسبات القرآنية في اتساق النصّ وانسجامه، وتجلّي الإعجاز القرآني من حيث البناء والنظم والتأليف، وتكشف عن قوة نسج في أسلوب الخطاب القرآني المشحون بالنكت الجلائل، والمكتنز بالمحاسن غير القلائل.
- المناسبة بين آيات سورة الشورى وسور آل حم يقتضي أنّ النصّ القرآني ذو وحدة معنوية موضوعية شاملة تتناغم فيه آخر السور مع مقدمتها، وترتبط عناصرها ارتباطاً محبوكاً يحيط بالسورة إحاطة السوار بالمعصم.
- المناسبة بين الآيات تهتم بالعلاقات الداخلية التي تنظّم التجاور والترتيب والتعليق بين الوحدات اللغوية، وهذا من مباحث لسانيات النصّ.

4. الهوامش:

¹ أحمد محمد صافي المستغامي، جواهر الدرر في علم مقارنات السور، دار ابن كثير، ط1، بيروت، 2018، ص31.

² ينظر: برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1995، ج1، ص11.

³ نظم الدرر، ج1، ص05.

⁴ نقله بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مكتبة دار التراث، ط3، القاهرة، 1984، ج1، ص36.

⁵ مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، ط3، دمشق، 2000، ص58.

⁶ مناع قطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، ط11، القاهرة، 2000، ص92.

⁷ نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 2014، ص159.

⁸ فايز بن سيف السريح، البينات في علم المناسبات، دار مقبس، ط1، الرياض، 2019، ص11.

- ⁹ نظم الدرر، ج1، ص12.
- ¹⁰ المصدر نفسه، ج6، ص593.
- ¹¹ وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، ط10، دمشق، 2009، مج13، ج25، ص22.
- ¹² أمين الله البشاوري، الدرر في مقاصد السور، مكتبة محمدية، ط1، بشاور باكستان، 2020، ج2، ص282.
- ¹³ عدنان عبد القادر، قواعد العناق لمعرفة ما بين الآيات من التناسب والاشتياق، دار حامل المسك، ط1، الكويت، 2015، ص12.
- ¹⁴ عدنان عبد القادر، نظم الماس والدرر في معرفة مقاصد السور من الصفات إلى الحجرات، دار حامل المسك، ط1، الكويت، 2011، ص159.
- ¹⁵ أحمد محمد صافي المستغامي: جواهر الدرر في علم مقارنات السور، ص322.
- ¹⁶ عدنان عبد القادر، نظم الماس والدرر في معرفة مقاصد السور من الصفات إلى الحجرات، ص159.
- ¹⁷ فاضل صالح السامرائي، التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، دار ابن كثير، ط2، دمشق، 2018، ص56.
- ¹⁸ نظم الدرر، ج6، ص597.
- ¹⁹ أحمد محمد صافي المستغامي، جواهر الدرر في علم مقارنات السور، ص333.
- ²⁰ جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، تح عبد الله أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1986، ص78.
- ²¹ عبد الله محمد الغماري، جواهر البيان في تناسب سور القرآن، مكتبة القاهرة، دط، القاهرة، دت، ص96.
- ²² محمد أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1993، ج7، ص486.
- ²³ نظم الدرر، ج6، ص599.
- ²⁴ فاضل صالح السامرائي، التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، ص143.
- ²⁵ فخر الدين الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2004، ج10، ص113.
- ²⁶ نظم الدرر، ج1، ص08.
- ²⁷ عبد الحميد الفراهي: دلائل النظام، المطبعة الحميدية، ط1، الهند، 1968، ص38.